القديس بولس الرسول

الأب نجيب ابراهيم الفرنسيسكاني

لوحة للقديس بولس
كنيسة الجلد – القدس

له نكرّس مع الكنيسة سنة خاصّة بمناسبة مرور ألفي سنة على ميلاده.

من كنيسة القدّيس بولس في روما، وخلال الاحتفال بصلاة الغروب يوم عيد القدّيسين بطرس وبولس في السنة الماضية، أعلن قداسة البابا بندكتس السادس عشر سنة الاحتفال بالالفية الثانية لميلاد القدّيس بولس الرسول، وذلك من ٢٨ حزيران ٢٠٠٨ حتى ٢٩ حزيران ٢٠٠٩. يُحتفل بهذه «السنة البولسية» بنوع خاص في مدينة روما حيث تُحفظ من ألفي سنة ذخائر الرسول تحت المذبح البابوي في البازيليك المكرّسة له. لذلك تدعو الكنيسة للعمل من أجل نشر تعليم وروحانية القدّيس بولس الرسول بشتّى الوسائل: نشرات خاصة، مؤتمرات وندوات تعليميّة.

تلبية لنداء الكنيسة، وخدمة لكلمة الله التي وصلتنا بواسطة «الإناء المختار»، كما يلقّبه الشاعر دانتي، سوف تنشر «السلام والخير» مقالات عديدة عن بولس الرسول ورسائله. كنا قد نشرنا مقالين للأب بولس الفغالي، واضع عشرات الكتب والدراسات والتأملّات في الكتاب المقدّس، في عددي نيسان وأيار عن الصليب والمرأة في رسائل بولس الرسول، على أمل أن نكمل معه الرسالة خلال «السنة البولسية». ولتكن صلاة القدّيس بولس الرسول معنا دائماً لخدمة الإنجيل الّذي من أجله أعطى حياته كلّها حتى الاستشهاد.

بولس من أنت؟

«فإِن ظَنَّ غَيري أَنَّ مِن حَقِّه الاِعتِمادَ على الأُمورِ البَشرِيَّة، فأَنا أَحَقُّ مِنه بِذلِك:

إِنِّي مَخْتونٌ في اليَوم الثَّامِن،
وإِنِّي مِن بَني إسرائيل،
مِن سِبْطِ بَنْيامين،
عِبْرانِيٌّ مِنَ العِبْرانِيِّين.
أَمَّا في الشَّريعة فأَنا فِرِّيسِيّ » (فليبي ٣ : ٤ – ٥).

بهذه الكلمات يعرّف بولس عن ذاته قبل الإهتداء.

وفي الرسالة الثانية إلى أهل قورنتس يقول:

« أقولُ هذا وأَنا خَجِل، كأَنَّنا أَظهَرنا الضُّعْف. فالَّذي يَجرُؤُونَ علَيه ـ وكَلامي كَلامُ غَبِيّ ـ أَجرُؤُ علَيه أَنا أَيضًا.

هُم عِبرانِيُّون؟ وأَنا عِبرانِيّ،
هُم إِسرائيليّون؟ وأَنا إِسرائِيليّ،
هُم مِن نَسْل إِبراهيم؟ وأَنا أَيضاً » (٢قورنتس ١١ : ٢١ – ٢٢).

في هذين النصّين، لا يقول بولس أنّه إسرئيليّ وحسب، بل أيضاً عبرانيّ. كانت هاتان الصفتان تُطلقان على اليهوديّ في عصر العهد الجديد. ولكن استعمال بولس لهاتين الصفتين في نفس النصّ، يعني أنّ الواحدة تتميّز عن الأخرى بشيء ما.

على خلاف كلمة « إسرائيليّ » ذات المعنى الواضح، يمكن أن تدلّ كلمة « عبرانيّ » على اليهود من سكان فلسطين، الذين كانوا يتكلّمون اللغة الآرامية، بينما كان يهود الشتات يتكلّمون اللغة اليونانية أو اللاتينية وما يوافق هاتين اللغتين من لهجات محلّية. لذلك يمكن أن تدلّ كلمة « عبريّة » على الآرامية، أي اللغة الشائعة في زمن يسوع والرسل. يقول لوقا في أعمال الرسل (٢٢ : ٢) أنّ بولس تكلّم مع الجمع في أورشليم بالعبريّة. في هذه الحال لا يمكن أن تكون اللغة المستعملة غير الآرامية، اللغة المحكية في ذلك الوقت بين جميع سكان فلسطين.

للبرهان على ذلك نقرأ في سفر أعمال الرسل ما يلي:

« في تِلكَ الأَيَّام كَثُرَ عَددُ التَّلاميذ، فأَخذَ اليَهودُ الهِلِّينِيُّونَ يَتَذَمَّرونَ على العِبرانِيِّين لأَنَّ أَرامِلَهم يُهمَلْنَ في خِدمةِ تَوزيعِ الأَرزاقِ اليَوميَّة » (٦ : ١).

يظهر في هذه الآية تمييز بين اليهود الهلّينيين، أي اليونانيين، والعبرانيين، أي اليهود من سكان فلسطين. من الواضح أنّ عبارة « عبرانيين » لا تعني فقط اليهود إجمالاً، بل اليهود الذين كانوا يتكلّمون الآرامية في الأرض المقدّسة.

بناء على هذه المعطيات باستطاعتنا القول أنّ بولس يؤكّد في رسالته إلى أهل فيليبي وإلى أهل قورنتس الثانية أنّه يهوديّ من أصل فلسطينيّ.

ولكن أين وُلد بولس الرسول؟ في جسكالا (اليوم بلدة الجش الجليلية) أم في طرسوس، القريبة من أنطاكية؟

حسب سفر أعمال الرسل، قال بولس الرسول للدّفاع عن نفسه أمام الشعب في أورشليم أنّه وُلد في مدينة طرسوس من قيليقية: «أَيُّها الإِخوَة وآبَاؤُها الآباء، اِسمَعوا ما أَقولُ لكُمُ الآنَ في الدِّفاعِ عن نَفْسي. فلَمَّا سَمِعوه يَخطُبُ فيهم بالعِبريَّة ازدادوا هُدوءاً، فقال: أَنا رَجُلٌ يَهودِيٌّ وُلِدتُ في طَرَسُوس مِن قيليقِية» (٢٢: ٣).

بلدة الجشّ

على خلاف ذلك، يقول القدّيس إيرونيمس أنّ بولس وُلد في جسكالا أي الجش. ولكن أهله هجروا إلى طرسوس أو بالأحرى أُبعدوا إليها من قبل الجيش الرومانيّ بقيادة «قارو» حاكم سوريا، الّذي هدّم مدينة «سفوريس» عاصمة الجليل في تلك الحقبة. في السنة الرابعة قبل الميلاد توفي الملك هيرودس الكبير. لم يكن هذا الملك مقبولاً ولا محبوباً لدى الناس، لذلك انتفض الشعب على أبنائه الّذين كان لهم حقّ الخلافة في الحكم. أتى حاكم سوريا الروماني لنجدة حلفائه ضد الشعب. وكان من عادة الرومان معاقبة أعدائهم بعدة طرق، منها بيعهم عبيداً. من المحتمل أن يكون هذا ما تحمّله والدا الطفل شاول، فبيعوا في سوق النخاسة ووصلوا إلى طرسوس. ولكن هناك احتمال آخر هو أنّهم هاجروا مثل كثيرين من أهل البلد بدافع البحث عن فرص اقتصادية وحياتية أفضل.

وُلد بولس بين سنة ٥ و١٠ بعد المسيح. في اليوم الثامن خُتن وسُميّ شاول (أي مطلوب من الله)، وأُعطي أيضاً اسماً آخر، بولس، أي «الصغير» في اللاتينية. كان من عادة يهود الشتات اعطاء اسم يونانيّ أو لاتيني مع الاسم العبرانيّ تكيّفاً مع المحيط، الّذي كان يفرض اسماً رومانياً لكل مواطن رومانيّ. من الجدير بالذكر أنّ اسم شاول يرد فقط في سفر اعمال الرسل، وذلك حتى الفصل الثالث عشر فقط. وشاول هو اسم اشهر شخصية في سبط بنيامين الذي ينتمي إليه، أي الملك شاول.

في اعمال ١٣ : ٩ يقول لوقا بشكل مفاجئ: «وكانَ شاوُلُ (ويُدعى أَيضًا بولُس) مُمتَلِئًا مِنَ الرُّوحِ القُدُس»، بعد هذه الآية لا يُذكر الرسول إلا باسم بولس. هكذا هو الأمر أيضاً في رسائل رسول الأمم الّذي يُعرّف عن ذاته فقط باسم بولس.

نهر سيدنوس في طرسوس
المدينة التي وُلِد فيها القديس بولس

شاول بولس، اسم يدلّ على النسب اليهوديّ وعلى الوضع الاجتماعيّ ليهود الشتات، الّذين حافظوا على الشريعة وتأقلموا مع محيطهم اليونانيّ. في هذا الجوّ نشأ بولس الرسول.

نشأة بولس في طرسوس

طرسوس مدينة عريقة يرجع تاريخها إلى عهد الحثيين. في العهد اليوناني والروماني كانت مدينة تجارية مهمّة، قال عنها بولس: «مدينة غير مجهولة» (اعمال ٢١ : ٣٩). بسبب مركزها الجغرافي والتجاريّ أصبحت طرسوس ملتقى شعوب وحضارات مختلفة، الاغريقية الرومانية والسّاميّة.

على الصعيد الثقافي، كانت طرسوس تنافس أثينا والاسكندرية، عاصمتي الفكر في ذلك الوقت، حسب قول الجغرافي سترابون: «سكان طرسوس شديدو الشغف بالفلسفة وبكل أنواع العلوم، حتى أنّ مدينتهم كانت تنافس أثينا والاسكندرية وكلّ مدينة لديها مدارس وتعليم للفلسفة». أنجبت طرسوس الكثير من الفلاسفة المشهورين مثل أنتيباترس الرواقيّ، والشعراء وفقهاء اللغة.

ساهم تعدّد الحضارات والثقافات في طرسوس في تعدّد الاديان. إلى جانب الاديان الوثنية المحليّة، كان السكان يتبعون الدين اليوناني الروماني الرسمي. أمّا اليهود فكانوا يتمتعون هم أيضاً بالحرية الدينية، فمارسوا الشريعة. لذلك كانوا يعيشون نوعاً من الانفصال عن المجتمع بسبب أحكام الشريعة في السبت وخاصة في الأكل والشرب.

في مدينة طرسوس المشهورة بثقافتها وعلمها اكتسب بولس تربية يهودية ويونانية على السواء. تنمّ رسائله عن معرفة أكيدة ليس فقط للغة اليونانية وحسب، بل لعلم البلاغة أيضاً.

من الأكيد أنّه تعلّم في جامعة طرسوس، حيث كانت الرواقية الفلسفة السائدة.

أما مراحل تربيته العائلية هي نفسها المتّبعة في تعليم التقليد اليهودي: «في عمر خمس سنوات: الكتاب المقدّس، في العاشرة: الميشنا، أي تفسير الكتاب المقدّس، في الثالثة عشرة: حفظ الوصايا، في الخامسة عشرة: حفظ التلمود».

تعلّم بولس الكتاب المقدّس حسب الترجمة اليونانية، التي كانت تُقرأ في الشتات. تبيّن رسائله معرفة عميقة للكتاب المقدّس بالترجمة اليونانية التي ترد أقلّه (٩٠) مرة في رسائله. لا بدّ أنّ للعائلة والتردد على المجمع الدور الأساسيّ لهذه النشأة الكتابية العميقة.

أكملت العائلة تربيته من خلال تعليمه العبرانية والآرامية ليكون باستطاعته قراءة الكتاب المقدّس بلغته الأصلية ومطالعة كتابات المعلمّين في ذلك الوقت.

وهناك من يؤكّد أيضاً أنّ بولس تعلّم مهنة الحياكة على يد أبيه. وكان تعلّم مهنة ما مطلوب حسب تعليم الرابانيين الذين كانوا يحثّون على تعليم الابناء مهنة يدوية إلى جانب درس الكتاب وكانوا هم أيضاً يمارسون إحدى المهن. يخبر أعمال الرسل أنّ مهنة بولس كانت «صناعة الخيم» (١٨: ٣). تقوم هذه الصناعة على حياكة وبر المعز، وكانت مألوفة في قيليقية، وطن بولس. كان بولس يمارس هذه المهنة خلال رسالته بهدف عدم التثقيل على أحد وإعلان البشارة مجاناً، متخليّا عن حقّه بالعيش من خلال التبشير بالإنجيل (١قورنتس ٩: ١-١٨):

«فإِنَّكم تَذكُرونَ، أَيُّها الإِخوَة، جَهْدَنا وكَدَّنا فقَد بَلَّغْناكم بِشارةَ اللهِ ونَحنُ نَعمَلُ في اللَّيلِ والنَّهار لِئَلاَّ نُثَقِّلَ على أَحَدٍ مِنكم» (١تسالونيكي ٢: ٩).

في طرسوس اكتسب بولس تربية يهودية ويونانية وعاش مثل الكثيرين من أبناء أمّته تجاذبات عديدة، تشدّه من جهة إلى الثقافة اليونانية الرومانية بتقاليدها الاجتماعية ومن جهة أخرى إلى الحضارة اليهودية المحافظة على الشريعة بوصاياها (٦١٣). كان على بولس الاختيار باستمرار بين هاتين الحضارتين في تفاصيل حياته اليومية. إمّا الشريعة بأكملها أو الابتعاد عنها. فاختار السير في الطريق الأول الذي أوصله إلى المدينة المقدّسة.

في أورشليم

كان عمره بين ١٥ و٢٠ سنة عندما انطلق بولس من طرسوس متجهاً إلى أورشليم، على الأرجح مع قافلة حجاج بمناسبة عيد الفصح. تبعد أورشليم حوالي ٨٠٠ كلم عن طرسوس في قيليقية. يستغرق قطع هذه المسافة حوالي ستة اسابيع. وكان ليهود قيليقيا مجمع

خاصّ بهم في المدينة المقدّسة، حسب شهادة اعمال الرسل: «فقامَ أُناسٌ مِنَ المَجمعَ المَعروف بِمَجمَع المُعتَقين ، ومِنَ القيرينيِّينَ والإسكَندَرِيِّينَ ومِن أَهلِ قيليقية وآسية، وأَخَذوا يُجادِلونَ إِسْطِفانُس» (٦ : ٩). «مجمع المعتقين» أي أولئك الذين نالوا الحرية من العبودية في المنفى في أنحاء الامبراطورية الرومانية. ربما كان والدا بولس من عداد هؤلاء كما سبق وذكرنا.

عندما وصل الحجّاج إلى المدينة المقدّسة، سالكين الطريق الساحليّ من انطاكية، الى اللاذقية وصيدا وصور حتى قيصرية البحر ومنها صعوداً إلى أورشليم، شاهدوا المدينة المقدّسة وقلوبهم ممتلئة بالفرح مرنمّين مزامير المراقي التي كان الحجّاج يتلوها خلال مسيرة الحجّ:

«فَرِحتُ حينَ قيلَ لي: لِنَذهَبْ إِلى بَيتِ الرَّبّ. تَوَقَّفَت أَقْدامُنا في أَبْوابِكِ يا أورَشَليم. أورَشَليمُ المَبنِيَّةُ كَمدينةٍ في وَحدَةٍ مُتَماسِكة. إِلى هُناكَ صَعِدَتِ الأَسْباطُ أَسْباطُ الرَّبّ عَمَلاً بِسُنَّةٍ في إِسْرائيل لِكَي يَحمَدوا اسْمَ الرَّبّ. هُناكَ نُصِبَت عُروش لِلقَضاء عُروشُ بَيتِ داوُد. أُطلُبوا السَّلامَ لأورَشليم. السَّكينَةُ لِلَّذينَ يُحِبُّونَكِ! السَّلامُ في أَسوارِكِ والسَّكينَةُ في قُصورِكِ! لأَجلِ إِخوَتي وأَخِلاَّئي لأَدْعُوَنَّ لَكِ بِالسَّلام لأَجلِ بَيتِ الرَّبِّ إِلهِنا أَلتَمِسُ لَكِ السَّعادة» (مزمور ١٢١).

كيف كانت أورشليم عندما وصل إليها بولس؟

كان باستطاعة الحجاج أن يروا بسهولة الهيكل في الناحية الشرقية الجنوبية من المدينة ودخان الذبائح يتصاعد من قدس الاقداس والى جانبه العمارة الجبّارة للقلعة الرومانية «انطونيا». ولم يكن من الصعوبة رؤية قصر هيرودس الكبير في الناحية الغربية وقصور النبلاء من رؤساء الكهنة. ولكن الهيكل الّذي أعاد ترميمه هيرودس الكبير كان الاجمل والاعظم في المدينة المقدّسة، يعلن للملء حضور الله ووحدة المدينة التي لا يمكن أن يجد المرء مثيلاً لها في كلّ الامبراطورية الرومانية، ما عدا مدينة روما حيث سلطة الامبراطور المطلقة.

رغم هذه الوحدة حول الهيكل، كان الجدال والانقسام حول كيفية خدمة الله. هناك الصدوقيون والهيرودسيون وغيرهم من الشيع، ولكن بولس كان فريسيّاً كما تؤكّد كل المصادر.

بولس الفريسيّ

في الرسالة الى أهل فيليبي، يقول: «أَمَّا في الشَّريعة فأَنا فِرِّيسِيّ» (٣ : ٥). وفي اعمال الرسل قال بولس في الدّفاع عن نفسه أمام الشعب في أورشليم:

»أَنا رَجُلٌ يَهودِيٌّ وُلِدتُ في طَرَسُوس مِن قيليقِية، على أَنِّي نَشأتُ في هذهِ المَدينة،

وتَلَقَّيتُ عِندَ قَدَمَي جِمْلائيلَ تَربيةً مُوافِقَةً كُلَّ المُوافَقةِ لِشَريعةِ الآباء، وكُنتُ ذا حَميَّةٍ لله، شأنَكم جَميعًا في هذا اليَوم» (٢٢ : ٣).

تعلّم الشاب شاول مبادئ الشريعة على يد معلّم مشهور، ذكره سفر اعمال الرسل الفصل الخامس بهذه الكلمات: »كانَ مِن مُعَلِّمي الشَّريعَة، وله حُرمَةٌ عِندَ الشَّعبِ كُلِّه».

كان الفريسيّون ينقسمون إلى مدرستين، الأولى متشدّدة والثانية متسامحة معتدلة. يتبع جملائيل الطريقة المعتدلة التي نشأ عليها الشاب شاول خلال إقامته في المدينة المقدّسة والتي دامت أربع سنين. أنهى شاول دراسته في سن العشرين تقريباً (بين سنة ٢٤ و٣٠ م) وكان عليه أن يتزوج حسب تعليم الفريسيين. لكنّه لم يفعل حيث نقرأ في رسالته الاولى إلى اهل قورنتس: « وأَقولُ لِغَيرِ المُتَزَوِّجينَ والأَرامِلِ إِنَّه يَحسُنُ بِهِم أَن يَظَلُّوا مِثْلي» (٧ : ٨).

ماذا تعلّم بولس خلال هذه الفترة الاكاديمية؟

الشريعة جوهر التعليم عند الفريسيين. بالنسبة لهم، الشريعة هي عطية محبّة الله واستجابة الشعب لهذه المحبّة. حتى انّه لا يمكن فصل الشريعة عن الله وعن شعب العهد. ولكن الشريعة ما كانت تقتصر فقط على الكتاب المقدّس، لأنّها شريعة مكتوبة وشفهية. في الشريعة المكتوبة (٦١٣) وصية وهناك اكثر منها في الشريعة الشفهية، التي كان يتناقلها معلّمو الشريعة من جيل الى جيل. نذكر أنّ يسوع واجه اكثر من مرة تفسير الفريسيين الخاطئ للكتاب المقدّس: «إنّكم تهملون وصيّة الله وتتمسّكون بسنّة البشر» (مرقس ٧ : ٨). يدعو يسوع تفسير الفريسيين « سنّة بشر»، اي مخالفة للوحي الالهي.

ولكن الامر لم يكن هكذا بالنسبة للشاب شاول الذي صار فريسيّا ذا حميّة، متمسّكاً بالشريعة وبتفسيرها حسب التقليد الشفهيّ: «فقَد سَمِعتُم بسيرَتي الماضِيَةِ في مِلَّةِ اليَهود إذ كُنتُ أَضطَهِدُ كَنيسةَ اللهِ غايةَ الاضْطِهاد وأُحاوِلُ تَدميرَها وأَتقَدَّمُ في مِلَّةِ اليَهودِ كثيرًا مِن أَتْرابي مِن بَني قَومي فأَفوقُهم حَميَّةً على سُنَنِ آبائي» (غلاطية ١ : ١٣ – ١٤).

لم يكن بولس شخصاً يعرف الاكتفاء بالقليل، بل كان يطلب الافضل. يبدو واضحاً من هذا النص ومن سائر الشهادات التي يقدّمها عن هذه المرحلة من حياته أنّه كان يبحث عن الكمال في إرضاء الله ليس فقط من خلال اتّباعه سنن الآباء، بل وصل به الأمر الى اضطهاد كنيسة الله.

كنت أضطهد كنيسة الله (غل ١ : ١٣)

كما في الرسالة الى اهل غلاطية كذلك في الرسالة الى اهل فيليبي يؤكّد بولس انّه كان

يضطهد الكنيسة: «وأَمَّا في الحَمِيَّة فأَنا مُضطَهِدُ الكَنيسة» (٣: ٦).

كذلك الامر في اعمال الرسل حيث لدينا شهادات عدة عن اضطهاد بولس للكنيسة، خاصة ما يخصّ استشهاد الشمّاس اسطفانس وما تبعه من تشتّت للمسيحيين: «وكانَ شاوُلُ مُوافِقًا على قَتْلِه. وفي ذلكَ اليَوم وَقَعَ اضطِهادٌ شَديدٌ على الكَنيسَةِ الَّتي في أُورَشَليم، فتَشتَّتوا جَميعًا، ما عدا الرُّسُل، في ناحيَتَي اليَهودِيَّة والسَّامِرة. ودَفَنَ إسطِفانُسَ رِجالٌ أَتقياء، وأَقاموا لهُ مَناحَةً عَظيمة. أَمَّا شاوُل فكانَ يُفسِدُ في الكَنيسة، يَدخُلُ البُيوتَ الواحِدَ بَعدَ الآخَر، فيَجُرُّ الرِّجالَ والنِّساء، ويُلقيهم في السِّجْن» (٨: ١ – ٣).

كان على بولس الفريسيّ ان يضطهد الكنيسة للدفاع عن الدور الفريد للشريعة، ذلك أنّ المسيح أخذ هذا الدور في تبشير الرسل، وعن «سنّة الآباء» التي كان المسيحيّون يخالفونها بشدة. كما اخذ العبرة من اولئك الذين أظهروا الحميّة للشريعة في تاريخ اسرائيل (عدد ٢٥ و١مكابيين ٢: ٢٣ – ٢٥).

في كلّ هذا كان بولس صادقاً يعمل بحسب ضميره ونشأته. وعلى الأرجح لم يلتقِ بيسوع خلال رسالته في أورشليم، بل بعد قيامته من بين الأموات على طريق دمشق. قبض عليه يسوع المسيح (فيليبي ٣: ١٢) ليجعل منه خادم الانجيل ورسول الأمم، لا بل أعظم رسول في تاريخ الكنيسة.

شاب، وليس كالشباب

ابن عصره وملّته ولكنّه تخطّى كل العصور لأنّه قبل دعوة المسيح. عاشت عائلته صعوبات ذلك العصر وكأنّه يحاكي ما نعيشه اليوم في هذه الديار المقدّسة وفي سائر بلدان المشرق، لا بل في كثير من بلدان العالم: احتلال وتهجير واستعباد للبشر بالغين كانوا أم أطفالاً.

قاوم مع والديه النكبة ونال الحريّة ولم ينظر بإحباط إلى وضعه الاجتماعيّ في الشتات. فراح يبحث عن ذاته في العلم والحقيقة بإرادة صالحة وصدق وثبات ولا يبغي سوى إرضاء الله. وصار ضليعاً في دين الآباء.

عايش شاول الشاب الحميّة الدينيّة التي لا تعرف للتسامح من معنى. فكلّ ما هو مخالف للشريعة شرّ، فصار الآخر تهديداً لكيانه وشرّاً يجب إزالته من الوجود.

ولكنّ المسيح أوقفه، أوقعه و«قبض عليه» وأنار قلبه الذي يسكنه الصّدق وحسن الطويّة.

أين تمّ ذلك وكيف وما هو دور هذا الحدث في فكر بولس وفي تاريخ الخلاص؟ (يتبع في العدد القادم).